

الدور

مجلة تراثية فصلية محكمة

بمباركة وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

هياة التحرير

مدير التحرير

د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

الهيئة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديشي

أ.د. كمال مظهر

أ.د. فائز طه عمر

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطليبي

الاستاذ حسن عريبي

التصحيح اللغوي

سليم سلمان

نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان العامري

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة
- الأعظمية -

ص. ب. : ٢٢ - بغداد

جمهورية العراق

هاتف : ٤٤٦٠٤٤

فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق : ٥٠٠ دينار، الأردن :

ديناران، الإمارات : ٣٠ درهما،

اليمن : ٢٠ ريالاً، مصر : ٣ جنيهات،

ليبيا : ٣ دينار، الجزائر : ٦٠ دينار،

تونس : ديناران، المغرب : ٢٠

درهما.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية.

في دول العالم الأخرى

٨٠ دولاراً.

حزنان د. محمد حسين الاعرجي ٢

تأثير اللغة العربية في اللغة الرومانية جورج غريغوري ١٢-٤

الحوار الاخير مع رائد علم
الاجتماع في العصر الحديث عبد الجبار السامري ١٢-١٨

دور الشفاء واثرها العلمي في بغداد
خلال العصر العباسي د. هريال داود المختار ١٩-٢٩

العلاقات الدبلوماسية العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الاول موفق سالم الجوادي
د. عبد النعم رشاد ٢٠-٣٧

قصة ثور الوحش - عند شعراء الطبقة الاولى -
ما بين التطور والانفتاح الرمزي ايمان محمد ابراهيم العبيدي ٢٨-٥٤

ما لم ينشر من شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤ هـ) .. صنتعة د. محمد عويد محمد ٥٥-٥٨

عندما مضى العرب بلاد البرتغال اطلقوا على مدينة (كالة)
اسم البرتغال ثم عمموه على المملكة مركز الانماء القومي ٥٩-٦٢

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠ هـ)
القسم الثاني تحقيق عباس هاني الجراخ ٦٢-٨٧
فصول اخوانية للجاحظ في العقد الفريد
لم ترد فيما طبع من آثاره د. يونس أحمد السامرائي ٨٨-٩٨

مصادر بريطانيا عن الوطن العربي ترجمة كاظم سعد الدين ٩٩-١٣٦

قراءة في بانيّة البحري في الاعتذار من الفتح
بن خافان وعقابه أ. د. فائز طه عمر ١٢٢-١٢٩

كور كيس عواد ١٩٠٨-١٩٩٢ حياته وآثاره د. عبد الله عبد السوداني ١٤٠-١٥٠

دور الشفاء

وأثرها العلمي في بغداد خلال العصر العباسي

د. فريال داود المختار

جامعة بغداد - كلية الآداب

المقدمة التاريخية

تنحصر مسيرة التعليم في العراق القديم بين الألف الثالث ق.م متمثلة في ألواح جمدة نصر وكيش وأور والوركاء وبين النصوص الآشورية الحديثة التي عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال (القرن السابع ق.م) والنصوص البابلية المتأخرة من بابل وسببا معظم والوركاء وغيرها. وقد دلت مئات الألواح الطينية^(١) المكتوبة والمتضمنة اعداداً كبيرة من التمارين المدرسية التعليمية التي تبدأ مع المبتدأ وتنتهي بمرحلة الانتهاء من الدراسة، كما تدل معظم هذه النصوص على وجود طرق تدريس موحدة مهما تعددت مراكز وجوده، فهي ترجع الى اصول عراقية وتقاليد حضارية مشتركة كانت معروفة.

ومنذ (٢٠٠ ق.م) اصبح للمدارس نظام خاص للتدريس ومواردها المنهجية، أما خواصها المعمارية فكانت في الغالب تشتمل على ساحة او قاعة واسعة تضم صفوفًا من الدكاك الخاصة بالعلمين أو الطلاب يلحق ببعضها مخازن الماء المستخدم في ترطيب الألواح الطينية أو تحضيرها^(٢)، كما في تل الحريري في ماري ومن تل المسيب (حوض حميرين) عثر على بناية كان قسماً منها ساحة مربعة الشكل يحيط بثلاث جوانب منها صفان من الطابوق بمستوى الارض وإضافة الى وجود دكتين احدهما

داثرية الشكل لجلوس المعلم والأخرى مستطيلة ربما كانت لمساعدته وعلى جانب منها وجدت مجموعة من الرقم الطينية يزيد عددها على المائتين رقيم باغلقتها الطينية^(٣).

وفي الحقيقة لم يقتصر مناهج التعليم المدرسي العراقي على اللغة فقط بل شمل العلوم كافة منها (علم الحيوان والنبات وعلم الفلك والرياضيات^(٤) ثم علم الطب^(٥))، اذ كشفت التنقيبات الأثرية عن مجموعة من النصوص الطبية مستنسخة عن نصوص طبية قديمة من (الألف الثاني ق.م) ومحفوظة في مكتبة الملك الاشوري (اشور بانيبال) كما عثر على مجموعة أخرى من النصوص الطبية في موقع اشور من (الألف الأول ق.م)^(٦).

ومن الجدير بالذكر ان نصصح الخطأ الشائع لدى بعض الباحثين وهو الجمع بين الممارسات الطبية وبين الممارسات السحرية فالطبيب A-SU (أسو) أو الطب والطبابة والمشتقة من الكلمة السومرية المركبة A-ZU أو A-ZU - IA واستعملت في العصر الأكدي (منتصف الألف الثالث ق.م) وتعني العارف بالماء أو العارف بالزيت^(٧) والاثنتان لهما دور مهم في الممارسات الطبية، في حين يعرف الساحر بـ آشيبو Ashipo، والصفة (Ashipotu) آشيبوتو، وتعني السحر والتعويد، كما أن صنف الاطباء

المحترفين^(٨) يكونون صنفاً خاصاً ورد ذكرهم ضمن مجموعة ذوي المهن الطبية في قوانين حمورابي المادة (٢١٥ - ٢٢٦)^(٩) الخاصة بتنظيم مهنة الطب وتحديد أجره الاطباء وتوقيع العقوبات عليهم في حالة الفشل، كما ورد ذكر مجموعة من التخصصات الطبية كالاطباء والجراحين ومجبري العظام والبياطرة واطباء العيون والاسنان^(١٠).

ولكن لا يمنع ان يكون الطب تحت حماية الآلهة، كما اعتقد العراقي القديم بان اسباب العلة والمرض ناجمة عن غضب الآلهة وعقابها للناس، وفي الوقت نفسه فان التطبيب والشفاء من المرض يرجع الى الآلهة ايضاً، ولهذا كانت هناك بعض الالهة خاصة بشؤون الطب والتداوي والشفاء مثل الهة الحكمة والماء (أيا) وسيد الأطباء الاله (ننازو)^(١١)، ويعرف كبير الأطباء بـ (راب آسي) - ياتي بعده (الكاشف) وهو الخبير بتشخيص المرض ثم الآسي ويقوم بوصف الدواء وتحضيره ثم يبين كيفية استعماله كما يوصي بنوعية الطعام كما ورد ذكر (الجراح) في نصوص قانونية عديدة^(١٢).

وكان الطبيب يرتدي زياً حسناً مميزاً، نظيفاً، حليفاً يدل مظهره على الاحترام، ويحمل بيده حقيبة يجمع فيها آلاته وادواته الجراحية، وبعض اللفائف والعصابات.

كما تشير دراسة النصوص الطبية الى وجود نوعين منها، الاول: نقرأ فيها تشخيص المرض من قبل الكاشف، والثاني: يظهر نوع المرض وتشخيصه من قبل الآسي، ووصف العلاج والتداوي بانواع الأدوية، وتبدو أهمية هذه النصوص في معرفة تطور الطب وتتابع مسيرته في صنع أدوية تكون أكثر تأثيراً واسرع شفاء، كما انها تعتبر مراجع مهمة للدارسين في مجال الطب، جاء في لوح طيني من نمر (نهاية الألف الثالث ق.م)^(١٣) يعد أقدم كتاب موجز في الطب نقرأ فيه أكثر من اثنتي عشرة وصفة طبية من الأدوية، ومن الجدير بالذكر ان تعابير هذه الوصفة الطبية فنية اصطلاحية^(١٤) بعضها أخذ من مصدر نباتي أو حيواني أو معدني، تهيأ العقاقير من البذور النباتية أو جذورها ويحتفظ بها بشكل مادة صلبة أو مسحوق أو بشكل قطرات سائلة، ولكن الوثيقة لا تذكر الامراض التي وضعت من أجلها ولا

مقاديرها، وربما كان هذا من متطلبات سر المهنة^(١٥). وفي الوقت نفسه عثر على نصوص أخرى جاءت مرتبة ضمن جداول ومقسمة الى ثلاثة حقول يذكر فيها اسم المرض واسم الدواء وارشادات موجزة حول كيفية استعماله، نذكر منه على سبيل المثال لا الحصر: عرق السوس دواء للسعال يسحق ويشرب مع الزيت والخمر^(١٦) ان ملخص ما يستدل من بعض النصوص القديمة والتي تتعلق بالطب يكشف لنا مدى التقدم العلمي للطب العراقي قبل حمورابي وبعده. تبلورت في قانونه العديد من الاختصاصات الطبية كالجراحة وتجبير العظام وطب الاسنان والعيون وكذلك العمليات المستعصية في بعض حالات الولادة. كما عرفوا بعض الحقائق عن التشريح من خلال فحص الحيوانات ومراقبتها عند تقديمها كندور للالهة وأطلقوا بعض المصطلحات الطبية مثل (شريانو) والمقابلة للعربية شريان (لفظاً ومعنى)^(١٧)، ولعل أهم الطرق الوقائية التي توصل اليها البابليون قبل غيرهم بقرون عدة (معرفتهم لعدوى مرض الجدام والوقاية منه، بطريقة عملية، وذلك بعزل المجدومين عن باقي السكان)^(١٨)، كما كان الرضى يقدون على (اريدو) من انحاء متفرقة من العراق القديم لانها كانت مركزاً دينياً وسياسياً ولان ماءها كان أظهر المياه... ومن هنا أصبحت موئلاً للاستشفاء والتطبيب فخللت محافظة على مكانتها^(١٩) الى سنة ٥٢٩ ق.م.

لا ينكر فضل الطب العراقي القديم على ما عرف في الطب اليوناني القديم أو الطب الفارسي والهندي ومن المؤكد أن الطب في وادي الرافدين قد اثر في طب البلاد الجاورة والمتصلة بالعراق بالطرق التجارية فالإغريق مثلاً اقتبسوا من حضارة وادي الرافدين وطبها شيئاً. غير قليل، عاد أكثره اليها في أوقات متأخرة على انه علم وطب أغريقي فنسي الاصل^(٢٠).

وبهذا أصبح من المؤكد ان مهنة الطب كانت قائمة على علم ذي اصول عريقة وفن يتعلمه الطبيب المتمرس بالملاحظة والممارسة فالجراح المبتدئ مثلاً كان يحصل على معرفته ومهارته من مراقبة المتمرس بالمهنة في العمل^(٢١)، أو يقرأ ما كتب من المواد الطبية على ألواح الطين المودعة في مخازن المكتبة ثم

ينتقل الى مرحلة تعلم كتابة الوصفات وبعدها يلتحق بالاسي،
(الخير) ليتعلم منه الجانب السريري^(٣٧).

علم الطب عند العرب

استمرت الحياة العلمية مزدهرة في بلاد وادي الرافدين واستمرت المراكز العلمية قائمة فيها وكانت الحيرة أكثرها ازدهاراً لم تشهده عاصمة عربية أخرى فكانت تزخر بمعاهد العلم ومدارسه، تشير النصوص التاريخية الى العديد من الشخصيات البارزة ذات المكانة الدينية والسياسية كانت تتلقى العلوم في مدارسها نذكر منهم على سبيل المثال إيليا الحيري مؤسس دير مارا إيليا في الموصل والرقش الأكبر كان يتعلم فيها الكتابة اما بشر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل فكان يأتي الى الحيرة^(٣٨) يقيم بها حيناً حتى تعلم الخط العربي من أهلها، وفي مجال الطب في الحيرة جاء (وكان الطب متقدماً في الحيرة في زمن اللخمين، وظلت الحيرة محافظة على شهرتها في صدر الاسلام فكان حنين بن اسحق العبادي من اقدر اطباء الدولة العباسية - كما سنرى. وكان ابوه صيدلانياً بالحيرة)^(٣٩). وكان من الطبيعي ان يؤدي ازدهار الحضارة لأي بلد ما الى تقدم معظم فروع المعرفة فيه، وليس من شئ اهم من العناية بالصحة لكل انسان اذا ماتوفرت له ضروريات الحياة وبهذا يكون اهتمام العربي بالصحة في الجزيرة قبل الاسلام موازياً لتقدمهم الحضاري، هذا من جهة ومن جهة أخرى لابد ان يكون مستوى الطب قد وصل الى درجة لا بأس فيه، وكانت ممارسة الطب في الجزيرة قائمة في الغالب على فئة العرافين من جهة وفئة الممارسين المجربين والثانية تعتمد في علاجها على ملازمة افراد القبائل في الصحراء واثناء الرعي ومراقبة ما يحدث من حالات طبيعية، كالولادة والمرض مما اكسبهم أكثر علماً وخبرة في تفاصيل عدة في التشريح مثلاً او معرفة اجزاء الجسم ووظائف كل عضو من اعضائه، فاشتهر من اطباء العرب (قبل الاسلام) مجموعة لا بأس بها كان منهم ابن حزم من بني تميم الرباب، ورباح بن عجلة باليمامة ورمثة التميمي^(٤٠) ثم الحارث بن كلدة الثقفي واخوه نظرة ثم أدرك الاسلام كما سنرى.

الطب في صدر الاسلام

قال تعالى: (اقرأ..)

وقال سبحانه وتعالى: (وزاده بسطة في العلم والجسم)

(البقرة - الآية ٢٤٧)، وقال القاضي صاعد الاندلسي في كتابه طبقات الامم: (ان العرب في صدر الاسلام لم تكن بشيء من العلوم ابلغتها ومعرفة احكام شريعته حاشا علوم الطب فإنها كانت موجودة عند افراد منهم مذكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها)^(٤١). وكما رفع العرب المسلمون راية الاسلام فتشروه شرقاً وغرباً، كانت كلمة الحق هي العليا وتعاليمه هي الأسس التي بنى عليها المسلمون قوام حياتهم وأصبح كتاب الله وسنة نبيه الكريم المنار الذي ينير للمسلمين طريقهم في العلم بدأت الرسالة الكريمة وبالعلم انتشرت على هذه الارض.

ومما لا شك فيه ان حضارة الاسلام كانت خطوة مهمة وجوهرية في إعادة وضع الطب وغيره من العلوم في مجراها الطبيعي فظهر نوع من الطب عرف بالطب النبوي لاعتماده السنة النبوية الشريفة ((جاء الشمردل النجراني الرسول الكريم(ص) مع وفد نجران فقال: يا رسول الله بابي انت وامي اني كنت كاهناً قويا في الجاهلية واني كنت أتعطّب فما يحل لي فاني تأتيني الشابة، قال: (فصد العرق ومجسة الطعنة إن اضطررت ولا تجعل من دوائك شوما وعليك بالسنا ولا تداو أحداً حتى تعرف داءه) فقبل ركبتيه وقال: والذي بعثك بالحق أنت أعظم بالطب مني)^(٤٢). ومن احاديث الشريفة (النظافة من الايمان) و (المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء)، جمع البخاري مجموعة كبيرة من الاحاديث الشريفة في هذا المجال فجاءت في كتابين، الأول في عيادة المرضى ودعاء العائد لهم، والثاني في ذكر العلل، كما ألفت في الطب النبوي العديد من المؤلفات العربية.

واشتهر اطباء العرب في هذه الفترة الحارث بن كلدة الثقفي من اليمن أدرك الاسلام وبقي حتى ايام معاوية يقال له (أطب العرب)، يروى عن سعد بن ابي وقاص (انه مرض بمكة فعاده رسول الله (ص) فقال: ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتعطب^(٤٣)، وعن سعيد قال: مرضت مرضاً فاتاني رسول الله

اما الخليفة الراشدي عمر (رضي) فقد أمر بمنع اختلاط
المجذومين بانفاس وأجرى لهم الأرزاق من بيت مال المسلمين^(٣١).

دور الشفاء في العصر الأموي

وفي العصر الأموي كانت حالة الطب كما كانت عليه في صدر
الاسلام يعد من المهن الشريفة فاشتهرت مجموعة من الاطباء
نذكر منهم عبد الملك الكناني والطبيبة زينب طبيبة بني أود
اشتهرت بين العرب بطب ومداواة آلام العين وجراحاتها، جاء عن
كناسة عن جده قال: (اتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد
كان قد أصابني فكحلني ثم قالت اضطجع قليلا حتى يدور
الدواء في عينيك فاضطجعت...) ^(٣٢).

وفي سنة ٨٨هـ - (٧٠٦م) بنى الخليفة الأموي الوليد بن عبد
الملك أول بناء لدار الشفاء للمرضى، وعين فيه اطباء تجري لهم
الأرزاق وكان للبناء ملحق خاص بالمجذومين، والعميان والمساكين
تجري لهم الأرزاق أيضاً^(٣٣). وفي الحقيقة اننا لا نعلم الشيء الكثير
عن هذه الدار: أين تقع؟ وما مساحتها؟ ولكن يضيف الاستاذ
(ناجي معروف بقوله: أن أول من أسس مستشفى للمجذومين في
الاسلام في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) وهو أول
خليفة جعل لكل أعمى قائداً يقوده ولكل مقعد خادماً
يخدمه^(٣٤). ويفهم من النص السابق أن مبنى الدار ربما كانت
مقسمة الى اقسام للمرض والمرضى والمجذومين والعميان وكان
يشرف عليها اطباء متخصصون كما كان فيها من الخدم
والمشرفين يؤدون خدماتهم لكل من دخل هذه الدار.

دور الشفاء في العصر العباسي

تبلورت فكرة عمارة دور الشفاء حتى اكتملت بشكل واضح في
العصر العباسي، فقد أصبح من الطبيعي ان يساير التقدم العلمي
العظيم للطب، تقدم وسائل العلاج فظهرت عمارة دور الشفاء، أو
المشافي، وتعرف أيضاً بالبيمارستان أو المارستانات وهي
المستشفيات في وقتنا الحاضر.

ولم تقتصر مهمتها على مداواة المرضى والجرحى فحسب، بل
كانت مدارس للطب، ومعاهد علمية يتخرج منها المتطبيبون
على اختلاف اختصاصاتهم، فكان لها اثرها العلمي الخالص الى

(ص) يعودني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على
فؤادي فقال إنك مفؤود انت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه
يتطبيب^(٣٥). سألته مرة معاوية ما الطب قال (الأزم) أي الجوع
والمسك أي الحمية^(٣٦) يعترف غوستاف لوبون بمعرفة العرب
للطب وموقف الاسلام منه فيقول: ((لم يجهل العرب أهمية
الصحة... وما امر به القرآن الكريم من الوضوء والإمتناع عن
شرب الخمر، ثم ما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل
الطعام النباتي على الحيواني، غاية في الحكمة وليس فيما نسب
الى النبي من الوصايا الصحية ما ينتقد^(٣٧)).

دور الشفاء في صدر الاسلام

لما كان الإسلام قد غني بالصحة وشرع للنظافة، فيما يعود
على جسم الانسان بالخير والصحة قال تعالى: (إن خير من
استأجرت القوي الأمين) (سورة القصص - الآية (٢٦)). كما حث
الاسلام على الحماية من المرض والابتعاد عن موطنه ثم
الاستفادة من الأدوية بالمعالجة والحماية وتجنب التلثة.

حث الاسلام على تعلم الطب والتمريض لحاجة العرب
اليهما في الفتوحات الاسلامية الاولى وكان صلى الله عليه وسلم
يسمح بخروج المرأة للجهاد مع الرجل فكان يحملن جرار الماء
يسقين العطشى وينتشرن بين المقاتلين يأسين الجراح ويجبرن
الكسور وفيهن من اشترك فعلاً في القتال فكانت لهن مواقف
مشهودة تذكرها صفحات التاريخ بكل فخر مثل أم عطية
الأنصارية ونسيبة بنت كعب المازنية.

وكانت أول اشارة لدار الشفاء في الاسلام (خيمة) أقامتها
المجاهدة زفيدة من بني اسلم وكانت ذات خبرة بأمور الجراحة
فقد أمرها النبي (ص) ينصب الخيمة في مسجد رسول (ص)
بالمدينة يوم الخندق يحمل اليها الجرحى لتداويهم وتحتسب
بنفسها على خدمة من كانت به ضبيعة من المسلمين ومن ثم
يعودهم الرسول الكريم عن قرب^(٣٨). جاء في السيرة الشريفة: كان
رسول الله (ص) قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من اسلم
يقال لها زفيدة في مسجده.... ثم يقول وقال الرسول نقوم حين
أصابه السهم بالخندق، (اجعلوه في خيمة زفيدة حتى أنقذوا من
قريب^(٣٩)).

جانب أثرها الخيري في تقدم علم الطب تقدماً بعيداً، إضف إلى ذلك اهتمام الخلفاء وعلية القوم بهذا العلم مما أدى إلى تقدم وازدهار هذه العمارة وبالتالي ازدهار علم الطب، فكانت نظم دور الشفاء وتقسيماتها ثم الدروس الطبية التي تلقى فيها، وكذلك اختيار الأطباء والصيادلة ثم ترتيبهم وشروط إجازتهم كل ذلك يدل على دقة نظام هذه الصنعة ورعايتها التي لا تقل عما عليه الآن في وقتنا الحاضر، فدور الشفاء كانت بمفهوم أعمق جامعات طبية وتعطى فيها الدروس النظرية إلى جانب الدروس العملية كما كان الطلاب يتلقون دروسهم في فرش المرضى أكثر مما يتلقونها من الكتب^(٣٨). جاء عن الطبيب علي بن العباس المعاصر للطبيب الرازي: (القرن ٦هـ - ١٠م). كتب كتابه الملكي والمشمول على الطب النظري والطب العملي استند فيه إلى مشاهداته في المشافي لا إلى الكتب^(٣٩).

نظام المشافي العباسية

سارت المشافي العباسية على وفق نظام إداري وتقني رفيع المستوى ولما تتمتع به من مكانة واهتمام بالغين فكانت تبني بأمر صادر من الخليفة أو الحاكم والسلطان، وتحت إشرافه مباشرة أو من ينوب عنه، كما يقوم بتعيين الطبيب المسؤول وفي بعض الاوقات يترك له مهمة اختيار موقع إقامة المستشفى واختيار الأطباء من بعده يذكر الطبيب جبرائيل بن بختيشوع: (ان الرشيد أمرني باتخاذ بيمارستان)^(٤٠) وكان أحمد بن طولون (٢٥٩هـ - ٨٧٢م) يركب بنفسه كل يوم جمعة ليتفقد المارستان والمرضى^(٤١). وما إن حل القرن الثالث الهجري (٩م) حتى كان العرب المسلمون قد استوعبوا المعارف الطبية استيعاباً تاماً، فترجع الأطباء العرب المسلمون في اقصر وقت ممكن على عرش الطب حاملين لواءه مسؤولين عن تقدمه خلال العصور الوسطى لما تميزوا به من متابعة الدراسة ورغبة في التعلم والتعليم والإفادة من العلم مهما علت منزلتهم العلمية، فإذا فرغ الطبيب منهم من تفقد المرضى في المستشفى يأتي إلى داره ويشرع في القراءة والدرس والتقصي ثم النسخ، فإذا فرغ أذن لمن يود زيارته أو الاستفادة منه وإذا ما انتهى يأكل شيئاً ليعود فيقضي بقية يومه في الحفظ والدرس^(٤٢) والكتابة ولهذا وجدت مجموعة

كبيرة من المؤلفات الطبية في جميع الاختصاصات .

إن النظام القائم في هذه المستشفيات يتمثل في الغالب بتقسيم المبنى إلى قسمين منفصلين، الأول للذكور والآخر للإناث^(٤٣)، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من الآلات وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين^(٤٤)، ولكل قسم في المستشفى رئيس يعرف بالساعور، أما الأمور الإدارية وهي من وظائف الدولة المهمة فكانت تسند لـ (الناظر) يعينه الخليفة أو السلطان بعد أن يجتاز امتحانه، جاء في عيون الأنباء ما يلي (عين الخليفة هارون الرشيد الطبيب بختيشوع رئيساً للأطباء بعد نجاحه في الاختبار الذي وضعه الخليفة)^(٤٥). أما رئيس الأطباء، فيقوم باختيار مجموعة من الأطباء وباختصاصات متعددة يأذن لهم في التطبيب كل حسب اختصاصه وكان لكل قسم من اقسام المشفى رئيس مختص يشرف على طائفة من الأطباء في قسمه. أما الأمور المالية للمشفى، فكان ينفق عليها بسخاء من الأوقاف التي ترصد لها ومن هبات المحسنين الأموال الكثيرة^(٤٦).

وكانت المشافي تؤثت بأحسن الأثاث حتى ليقال أن أثاث المستشفى المنصوري بالقاهرة كان يماثل أثاث قصر الخليفة وقصور الأمراء^(٤٧)، وضمن نظام المشافي، إذا دخلها المريض تنزع ثيابه وتؤمن ما معه من أموال عند أمين المشفى ثم يلبس ثياباً خاصة ويفرش له، ويعالج حتى يبدأ وإذا شفى ينصرف وترجع له ملابسه وأمواله^(٤٨). أما إذا كان المريض جاء للعلاج فقط فكان يعرض على الطبيب الجالس على دكة خاصة فيكتب له العلاج على أوراق معتمدة يؤخذ بموجبها الدواء من صيدلية المشفى^(٤٩). وفي الغالب تخضع المشافي للتفتيش والرقابة من المحتسب وكان على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين والصيادلة أن يؤدوا اليمين أمامه بل وإن ينجحوا في الامتحان من قبله^(٥٠).

صفات الطبيب

من خلال النصوص التاريخية والطبية أصبحت لدينا صورة واضحة لصفات الطبيب العربي المسلم الذي يقع عليه الاختيار في العمل في المشفى بعد اجتيازه الاختبار، نذكر منها: يجب أن يكون حسن الهيئة، كامل الخلقة، صحيح البنية، نظيف الثياب، طيب الرائحة، يسر من نظر إليه، وتقبل النفس على تناول

والأدوية والعقاقير (الصيدلية).

وهناك مشافي الحقن بالمساجد كما في مشفى السلطان أحمد الأول في اسيا الصغرى - ٦٢٨هـ الملحق بمسجد السلطان أحمد أو مسجد ((ديفرجي))^(١٧).

نماذج من دور الشفاء خلال العصر العباسي

ظهرت مجموعة كبيرة من المشافي في مدينة السلام في العصر العباسي نذكر منها.

١. مشفى الرشيد: وهو أول مشفى عباسي ١٧١هـ انشاه بأمر من الخليفة الطبيب جبريل بن بختيشوع^(١٨).

٢. وفي محلة المحرم جنوب الرصافة كان مشفى بدر - غلام الخليفة المعتضد وعرف بالصاعدي - وكانت النفقة عليه من واردات السيدة سجاح أم المتوكل (ناجي معروف - ص ٢٤٧).

٣. وفي محلة الحربية قرب مقبرة أحمد بن حنبل (باب حرب) كان يوجد مشفى ٢٠٢هـ بناه علي بن الحسن (وزير المقتدر بالله ابن الجوزي - المنتظم - ط ١ - ص ٢٤).

٤. في سنة ٢٠٤هـ أصبح مجموع مشافي بغداد خمسة يرأسها الطبيب سنان بن ثابت.

٥. وفي سنة ٢٠٦هـ تم فتح مشفين كبيرين أحدهما عرف بمشفى السيدة نسبة إلى شغب أم المقتدر بالله ويقع في سوق يحيى بالجانب الشرقي من بغداد.

والثاني عرف بالمقتدري نسبة إلى المقتدر بالله ويقع في محلة باب الشام في الجانب الغربي من بغداد ويشرف عليه مجموعة من الاطباء الماهرين.

٦. وفي سنة ٢١٣هـ (٩٢٥م) انشا (ابن الفرات) وزير المقتدر مشفى في درب الفضل وكان ناظره الحسن بن سنان بن ثابت (البدرى - ص ١٢٨).

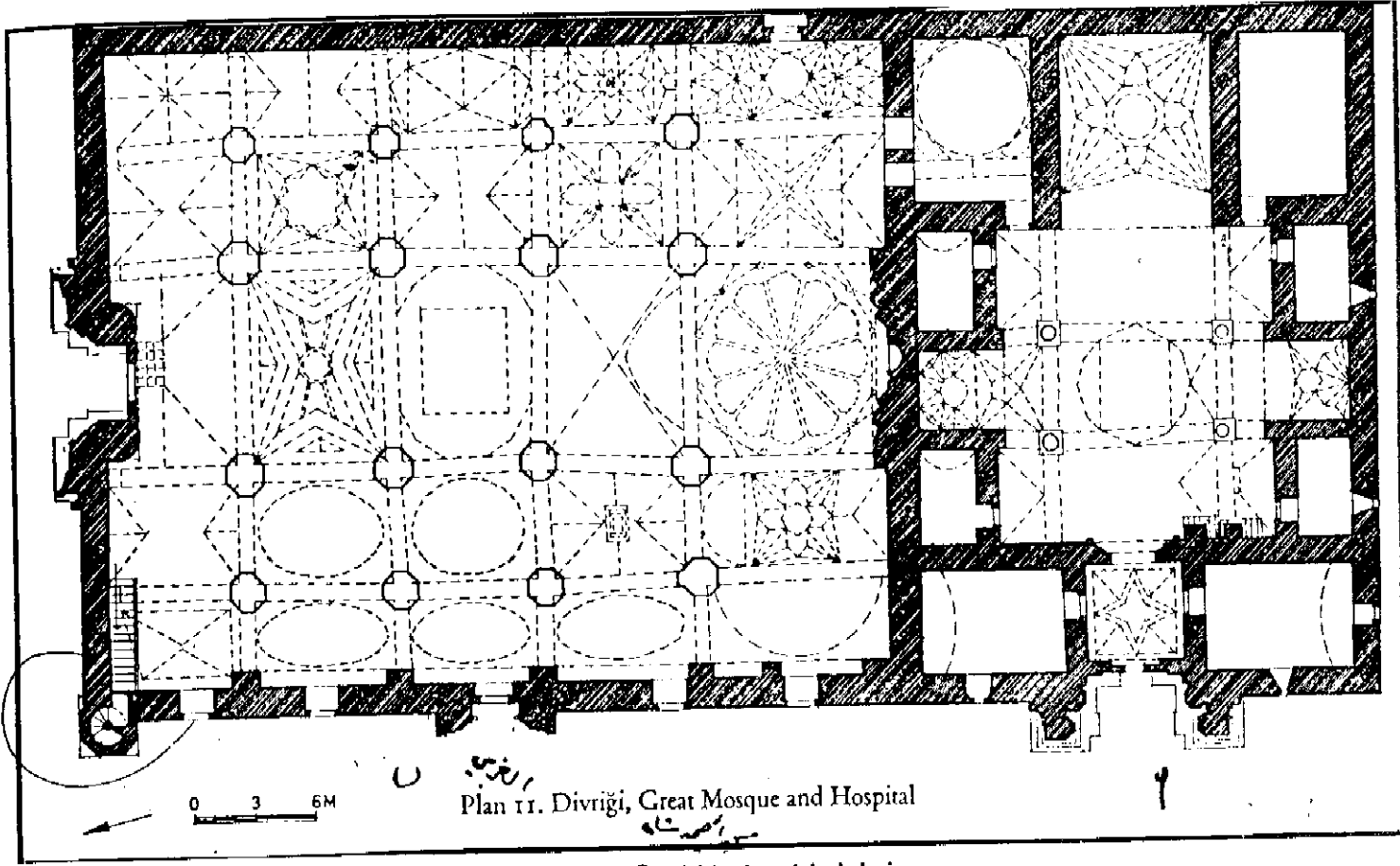
استمر تشييد المستشفيات في بغداد وكثرت حتى غدت من ابرز مميزات الحضارية كان منها ما بين السنوات ٢٢٩هـ - ٢٥٥هـ ثم ٢٧١هـ ففي هذا العام افتتح مشفى العضدي، نسبة إلى مؤسسه وكان بناؤه قد استغرق ثلاث سنوات^(١٩) ويقع في الجانب الغربي من بغداد بالقرب من طرف الجسر الغربي وارض قصر الخلد وكان فيه من الاطباء والمعالجين والكحالين والجراحين والمجبرين

والبوابين والخزان، وكان مزوداً بالأدوية والأشربة والفرش والالات الطبية^(٢٠) بقي المشفى حتى منتصف القرن السادس الهجري (١٢م) فذكره الرحالة بنيامين ثم ابن جبير ٥٨٠هـ حيث يقول: (وهو قصر كبير فيه المقاطير والبيوت وجميع مرافق المساكن والماء يدخل اليه من دجلة^(٢١) وظل هذا المشفى قائماً يؤدي خدماته حتى سنة ٦٥٦هـ آخر ايام الخلافة العباسية.

ومن مشافي بغداد يذكر الذهبي وضمن حوادث ٤٠١ - ٤١٦هـ مشفى (قل أن عمل مثله) انشاه الوزير محمد بن علي في (عهد القادر بالله)^(٢٢).

بالإضافة الى ذلك فقد كانت هناك مشافي في وسط وديار بكر (ميافارقين).

ولكن وعلى الرغم مما مررنا من المستشفيات وكثرتها لم يبق منها قائماً. الآن - اي مستشفى أو أي أثر منها ومع ذلك يمكننا ان نكون صورة واضحة لدور الشفاء في تلك المدة من خلال مقارنتها مع ما انشئ من المستشفيات في البلاد العربية الاسلامية مثل المستشفى الملحق بمسجد السلطان أحمد في اسيا الصغرى ٦٢٨هـ (شكل ١) ومستشفى النوري بدمشق (٥٤٩هـ) الذي يعد خير مثال للعمارة العباسية في هذه المدة ومن مصر مشفى قلاوون والملحق بمجموعة عمارية تتألف من المدرسة وضريح قلاوون بالنحاسين ٦٢٨هـ (شكل ٢) ثم دار الشفاء المرجانية في بغداد ٧٦٠هـ، ولعل هذا المبنى يعد آخر أثر كنموذج للمشافي في بغداد بناه أمين الدين مرجان في نفس المدة التي بنى فيها الخان المعروف باسمه الذي لا يزال باقياً في بغداد - تشير الى ذلك كتابة تذكارية بخط الثلث على أرضية نباتية تتألف من تسعة اسطر نقرأ فيها في السطر الرابع 'سم الباني ونص الوقفية على المدرسة المرجانية دار الشفاء والخان بباب الغربية'^(٢٣) ثم تاريخ البناء. إضافة الى ذلك فان رسوم المخطوطات المنفذة في هذه المدة كمخطوطة مقامات الحريري للفنان العراقي يحيى الواسطي ٦٢٤هـ تصور جوانب عدة من الطب العراقي فمنها ما يمثل عملية الولادة والتي تتم في داخل المنزل تقوم بها قابلة خاصة وصورة أخرى تمثل عملية الحجامة كما تمثل مجموعة الالات والادوات المستخدمة في العمليات الجراحية (شكل ٢).



مخطط طبني دار الشفاء [شكل رقم ١]

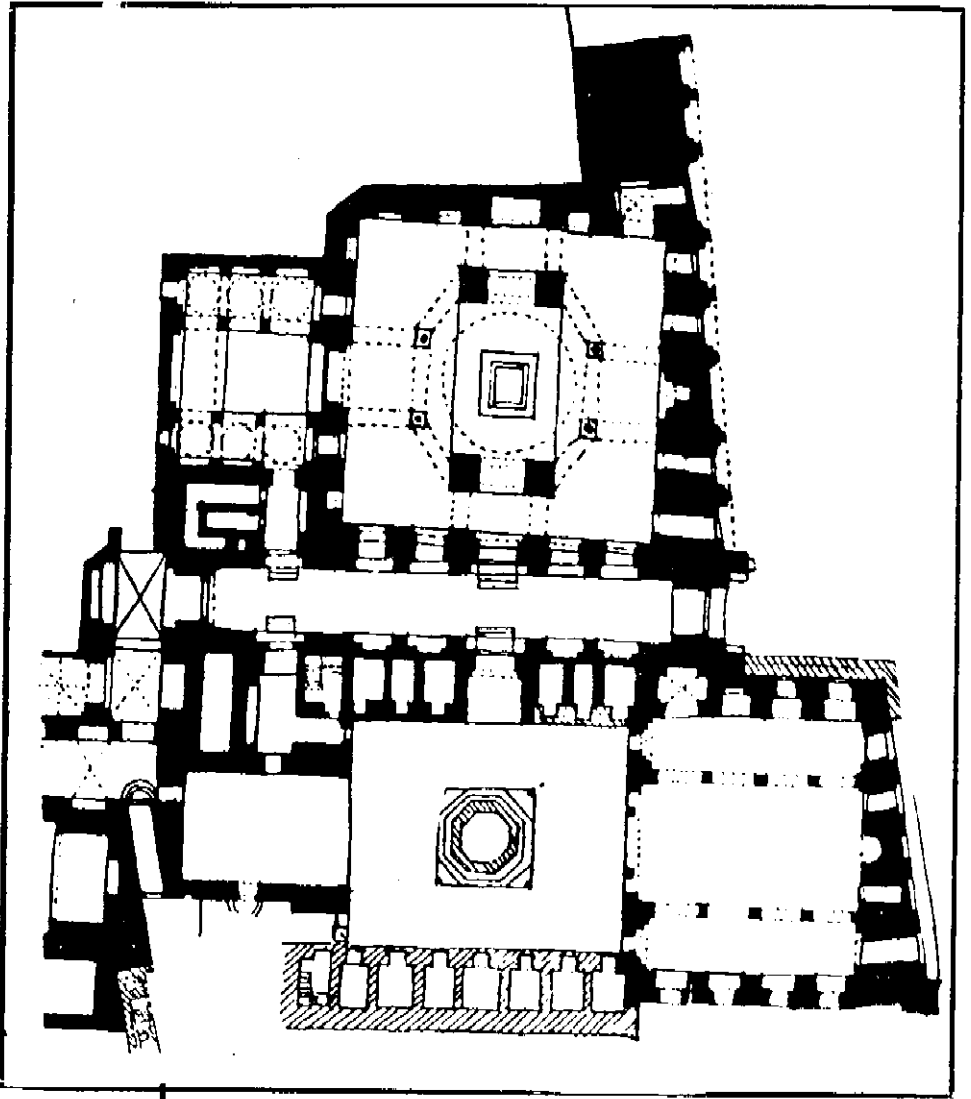
في ديفرجي في اسيا الصغرى ٦٢٨ هـ واطلعف مسجد ديفرجي او مسجد السلطان احمد

المخططات الأرضية لدور الشفاء

من الجدير بالذكر ان معظم الأسس والتقاليد العربية للعمارة العربية الاسلامية من حيث التخطيط والعمارة والعناصر لا تزال سالحة الان ولو قدر لها وتوفر الفهم الصحيح لاسسها والعوامل التي انتجتها لمساعد على تطويرها بما يلائم مختلف الطبقات والعصور ولأمكن صياغة انواع العماائر في القالب العربي الاسلامي. ومن الأدلة على ذلك مساقط العماائر العربية الاسلامية على اختلافها وهي وضع الصحن أو الفناء المكشوف يتوسط كتلة المبنى تحيط به بقية الوحدات المعمارية الرئيسية منها والثانوية كي تستمد منه معظم حاجتها من الإنارة والتهوية، ثم القليل الباقي من الطرق والشوارع الخارجية، إذن كان الصحن أو الفناء هو الوحدة المهمة بل النواة

الأولى في تصميم مساقط جميع العماائر على اختلاف أنواعها سواء كان المبنى مسجداً أو خاناً أو مستشفى أو قصراً أو داراً أو مدرسة... الخ^(١٤) ومن حسن المصادفات أن يكون كتاب^(١٥) أوقاف امين الدين مرجان والمتضمن ذكر مشآته الخيرية وبضمنها - دار الشفاء - نفهم منه بانها انشئت على غرار المنشآت المماثلة والسابقة لها ولهذا يصح أن تتخذ دار الشفاء المرجانية انموذجاً لمستشفيات بغداد القديمة وربما انفردت هذه الدار بامور تختلف عن غيرها من المستشفيات.

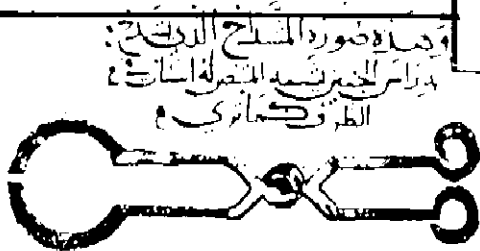
ونفهم من هذا النص تخطيط المستشفيات البغدادية ومدى تأثرها بمميزات العمارة العراقية القديمة قبل الاسلام وبعده، فما هي إلا احدى الحلقات المتتابعة من سلسلة العمارة العربية في العراق التي تميزت سماتها منذ أكثر من خمسة آلاف عام



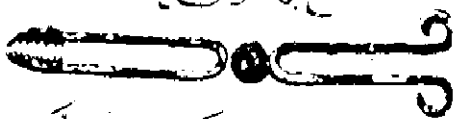
[شكل رقم ٢]

مدرسة وضريح وبیمارسنان قلاوون بالنحاسین

واستمرت محافظة عليها^(٣)، وقد تبلورت هذه السمات في تخطيطها الذي نوجزه بما يلي يدخل الى الدار من مدخل واحد يؤدي الى دهليز طويل وعلى جانبیه دكتان للبوابین يؤدي الدهليز الى صحن مستطيل الشكل تطل عليه مجموعة من الغرف والمرافق الصحية والمطبخ وفي صدر الصحن في الضلع المقابل للمدخل أيوان في صدره شبك يطل على نهر دجلة أعد للدراسة أو لجلوس الهيئة الادارية والمالية فيها ان هناك أيوان آخر يجلس فيه الساعور وتلاميذه وكحال وجراح وفي طرفیه خزانان احدهما للادوية والالات والثانية للكتب. ان صف الغرف المطلة على الصحن والتي تكون على يمين الداخل معدة للرجال وتنتهي بمخرج من فوق سرداب الى خارج المشفى أما



تتضمن متعلقاتها كالحبال وكل
فقد الضرر كما ترى كذا كانت النحاس
تقطع بها الخشب

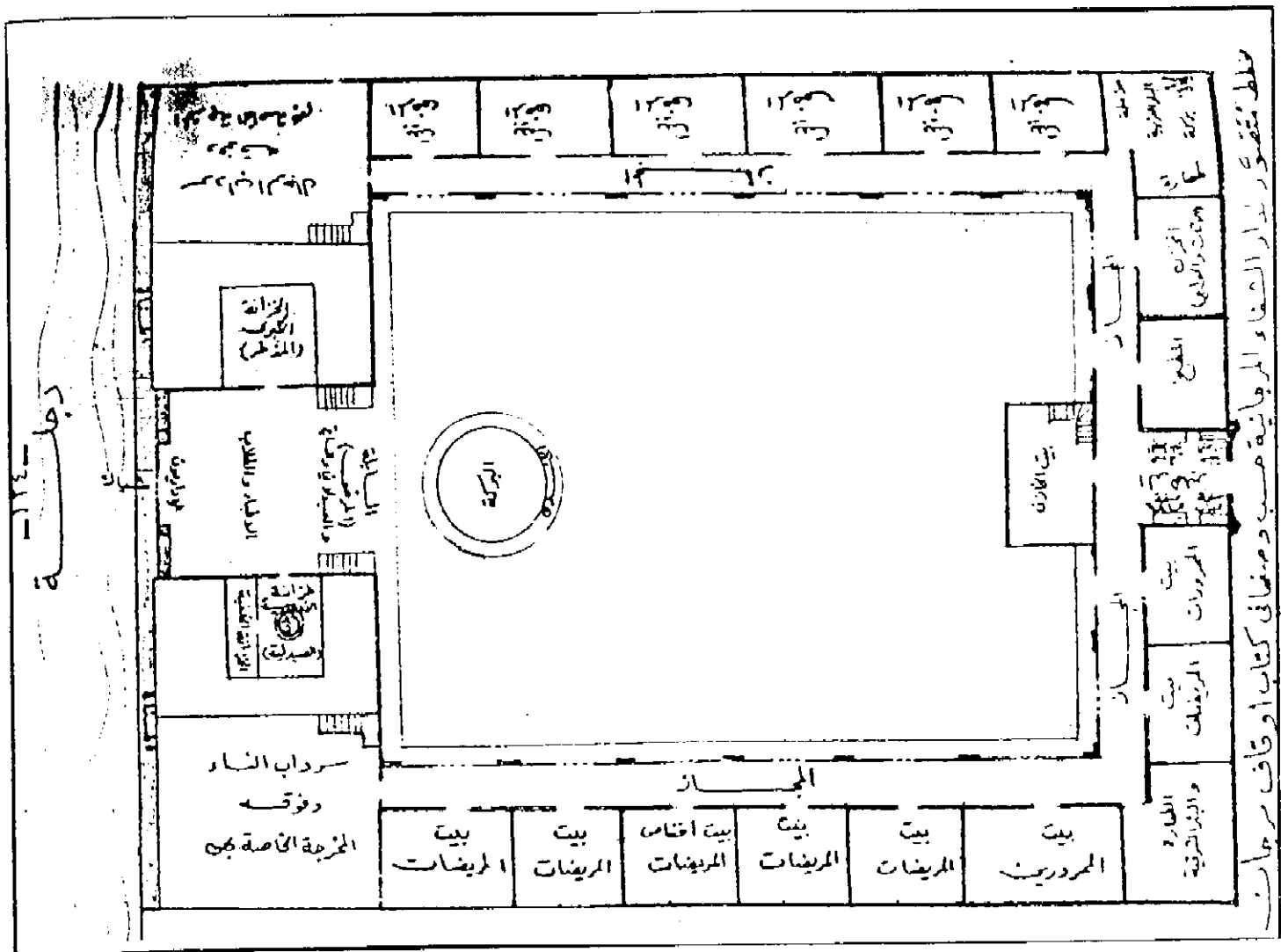


ان الزمير والآن كما ذكرت انواعها وكانت معدة
للمجانع كانت اشبع اعلم وانزع من النحاس والاسفنج

الات طبية من كتاب الزمراوي

[شكل رقم ٣]

الات طبية من كتاب الزمراوي



[شكل رقم ٤]

مخطط مبنى دار الشفاء المرحانية

الفناء المكشوف تحيط به الغرف وتفتح ابوابها مباشرة عليه ثم الايوان يتصدر الصحن في الضلع المقابل للمدخل وتتوسط الصحن بركة للماء أو حوض يعمل على كسب المكان جمالا ويزيد من تلطيف الجو وفي الغالب تكون دور الشفاء بطابقين الارضي منها للمرضى والثاني للناظر أو من يقوم بالاشراف على المراجعين وبنائية المشفى، اما طريقة التسقيف فربما كانت بشكل اقبية فتحت فيها فتحات لإنارتها وهي بهذا تشبه تقبية خان مرجان أو تشبه تقبية مستشفى السلطان أحمد باسيا الصغرى وللمشفى مدخل ربما كان على غرار مدخل المدرسة المرحانية أو خان مرجان ذي العقد المدببة وتزينه زخارف محفورة على الحجر.

الجانب الثاني - على يسار الداخل - فقد أعد للنساء. وهو مناظر للاول ويقع امام المدخل للمشفى بيت له مرفق به درج يؤدي الى سطح هذه الدار وقد أعدت لسكنى الخازن وأهله اما صحن المشفى ففيه بركة للماء دائرية الشكل جميلة منحوتة من المرمر الأبيض تملأ بالماء الطاهر منقوش حولها خندق لطيف تقيض فيه وينصرف ماؤه. ويصعد على جانبي البواب الرئيسية للمشفى بواسطة سلمين الى الطابق الثاني يطل على الصحن بعقود نصف دائرية لمر يتقدم غرف هذا الطابق (شكل ٤).

ومن الوصف السريع لهذا المخطط يتبين لنا ان المخطط الرئيسي للمشافي البغدادية بشكل واضح والمعروفة في البيت العراقي منذ الألف الثالث ق.م وكذلك في معابده تتلخص في

الهوامش والمراجع

٢٦. المقرئزي - الخطوط - ج ٢ - ص ٤٠٥.
٢٧. معروف - المصدر السابق - ص ٣٤٣.
٢٨. لوبون - المصدر السابق - ص ٢٩٢.
٢٩. نفس المصدر - ص ٤٨٩.
٤٠. ابن أبي أصيبعة - المصدر السابق - ص ٢٤٥.
٤١. المقرئزي - المصدر السابق ج ٢ - ص ٤٠٥.
٤٢. البدرى - المصدر السابق - ص ١٢٦ وابن أبي أصيبعة ص ٢٢٤ - ٢٥٢.
٤٣. ابن أبي أصيبعة - ج ١ - ص ٣١٠.
٤٤. أحمد عيسى - تاريخ البيمارستانات - ص ٨١ وابن أبي أصيبعة ج ٢ - ص ١٥٥.
٤٥. ابن أبي أصيبعة - ج ١ - ص ١٣٦.
٤٦. نفس المصدر - ص ٣٠١.
٤٧. ناجي معروف - أصالة الحضارة - ص ٢٤٩.
٤٨. المقرئزي - ج ٢ - ص ٤٠٥.
٤٩. ابن أبي أصيبعة - ج ٢ - ص ٢٤٢.
٥٠. المقرئزي - ج ٢ - ص ٤٠٥.
٥١. البدرى - المصدر السابق - ص ١٢٥.
٥٢. ابن القفطي - تاريخ الحكماء - ص ١٤٨.
٥٣. المصدر نفسه - ص ١٠٢.
٥٤. البدرى - المصدر السابق - ص ١٢١.
٥٤. أصالة الحضارة - ناجي معروف - ص ٢٤٨.
٥٥. أحمد عيسى - المصدر السابق - ص ٢٠.
٥٦. المصدر نفسه - ص ٣٤.
٥٧. المصدر نفسه - ص ٣٥.
٥٨. ابن أبي أصيبعة - المصدر السابق - ص ٢٠٠.
٥٩. نفس المصدر - ص ٣٠١.
٦٠. البدرى - المصدر السابق - ص ١٢٢.
٦١. الحوادث الجامعة ص ٨٢ وناجي معروف - علماء المدرسة المستنصرية ص ٢٤٣.
٦٢. أحمد عيسى - المصدر السابق ص ١٧٨.
٦٤. مصطفى جواد - دليل خارطة بغداد - ص ١٤١ - بغداد ١٩٥٨.
٦٥. ابن أبي أصيبعة - ج ١ - ص ٣١٠.
- وإبن الجوزي - المنتظم - ج ٧ - ص ١١٢ - ١١٣.
٦٦. ابن جبير - الرحلة - ص ٢٢٦.
٦٧. أحمد عيسى - المصدر السابق - ص ١٩٧.
٦٨. مصطفى جواد - المصدر السابق - ص ٢٢١.
٦٩. الشافعي - فريد - العمارة العربية - ص ٢٨ - ٢٩ - مصر ١٩٧٠.
٧٠. وهو مخطوط محفوظ في خزانة الأستاذ الكبير ناجي محفوظ.
٧١. محفوظ - ناجي علي - مستشفيات بغداد - محاضرة القيت في ندوة بغداد مدينة السلام - ص ١١٢ - بغداد ١٩٩٠ مركز احياء التراث.
١. عثر عليها في موقع شرويك (قارة) أثناء التنقيبات ١٩٠٢ - ١٩٠٣م مطلع هذا القرن. (عبد الواحد - فاضل - هكذا كتبوا على الطين - مجلة كلية الاداب - العدد (٢٧) ١٩٧٩ - ص ٤١).
٢. اسماعيل - بهيجة - الكتابة - حضارة العراق - ط ١ - ص ٢٦٣ - بغداد ١٩٨٤.
٣. المصدر السابق ص ٢٦٤.
٤. فاضل - المصدر السابق - ص ٤٤ - ٤٥.
٥. فاضل - حضارة العراق القديم - ج ٢ - ص ٣١٤.
٦. المصدر نفسه.
٧. ساكر - هادي - غزلة بال - ترجمة عامر سليمان - ص ٢٢٩ - جامعة الموصل ١٩٧٩.
٨. المصدر نفسه.
٩. ساكر - المصدر السابق ص ٥٤٠.
- كبير - أنوار د - كتبوا على الطين - ص ١٦٤ - ترجمة محمود الامين - بغداد ١٩٦٤.
١٠. المواد - ٢١٥ - ٢٦٦ من قانون حمورابي - ساكر المصدر السابق.
١١. كريم - صموئيل - من ألواح سومر - ترجمة طه باقر - ص ١٢٥ القاهرة.
١٢. البدرى - عبد اللطيف - الطب عند العرب - ص ١٤ - الموسوعة الصغيرة ١٩٧٨.
١٢. ابعاد اللوح ٩,٥ × ١٥,٩ سم.
١٤. كريم - المصدر السابق - ص ١٢٩.
١٥. نفس المصدر ص ١٢٢ - ١٢٤.
١٦. فاضل - حضارة العراق - ج ٢ - ص ٢١٧.
١٧. نفس المصدر ص ٢١٨.
١٨. صيري - أمينة - لمحات من تاريخ الطب القديم - ص ١٦١ - القاهرة ١٩٦٦.
١٩. العلوجي - عبد الحميد - تاريخ الطب العراقي - ص ١٣٥ - بغداد ١٩٦٧.
٢٠. البدرى - المصدر السابق - ص ٢٢.
٢١. زاكس - المصدر السابق - ص ٥٤٠.
٢٢. البدرى - نفس المصدر - ص ١٠.
٢٣. السيد - عبد العزيز سالم - تاريخ العرب قبل الاسلام - ط - ص ٢٦٨ - القاهرة.
٢٤. ابن العبري - تاريخ مختصر الدول - ص ١٤٤.
٢٥. صيري - أمينة - المصدر السابق - ص ٢١٧.
٢٦. أحمد عيسى بك - تاريخ البيمارستانات في الاسلام - ص ٥ - بيروت ١٩٨١.
٢٧. أحمد عيسى - المصدر السابق - ص ٧ - ٨.
٢٨. البدرى - المصدر السابق - ص ٢٦.
٢٩. أحمد عيسى - نفس المصدر ص ٦.
٣٠. ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ١٦١ - بيروت ١٩٦٥.
٣١. لوبون - غوستاف - حضارة العرب - ص ٤٩٢ - بيروت.
٣٢. عن تخريج الآلات السمعية - أحمد عيسى - المصدر السابق ص ٩.
٣٣. ابن هشام - السير النبوية - ج ١ - ص ٦٨٨.
٣٤. معروف - ناجي - أصالة الحضارة العربية - ٢٤٣ - بغداد ١٩٦٩.
٣٥. ابن أبي أصيبعة - المصدر السابق - ص ١٨١.

62-OKTAY ASLANEPA: TURKISH ART AND ARCHITECTURE - 1971 - LONDON.